بسم الله الرحمن الرحيم

موازنة بين مُنصفني المفضل النُكري والعباس بن مردّاس السلمي

إعداد د. محمد زروق الحسن
الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية
قسم الدراسات الأدبية والنقدية
جامعة أم درمان الإسلامية

٢٠١٢م

توطئة

هذه الدراسة تُعنى بسبر غور قصيدتين منصفتين أصمعتين هما قافيّة المُفضَّل النُّكْرِيّ (ألمَ تر أنّ جبرتنا استقلّوا...) وسينيّة العباس بن مردّاس السُّلَميّ (لأسماء رسم أصبح اليوم دارسا...). .

قام منهج الدراسة هنا على الموازنة بين القصيدتين مضموناً وشكلاً، في محورين رئيسيين : المحور الأول: خصصته بدراسة المضمون متتبّعاً له من المقدمة إلى الخاتمة، ذاكراً ما تساوى فيه الشاعران، وما بذّ فيه أحدهما الآخر. المحور الثاني: أفردته لدراسة شكل القصيدتين بدءاً من الوزن والقافية، والصورة البلاغية، ووحدة القصيدة، وانتهاءً بما حوته القصيدتان من ألفاظ تصوّر جو المعركة أصدق تصوير، ثم ختمت الدراسة بخاتمة أوجزت أهم نتائجها، وثبت بالمصادر والمراجع .

وفي تضاعيف ذلك كله كنتُ أذكر الفاضل والمفضول من الشاعرين حين يتفاوتان في الجودة، أو أميل إلى التسوية حين تتعادل الكفتان. ورغم أن منهج الموازنة فيه مزالق جمّة لأجلها يتحاماه الباحثون شُداة ومتبحّرين ، لكنني ولجتُ بابه - غير آبه بمزالقه، ضامّاً ما تشابه من القصيدتين وما تقارب منهما فكرة إثر فكرة، وفلذة إثر فلذة.

المحور الأول: مضمون القصيدتين المنصفتين:

المنصفات هي القصائد التي أنصف قائلوها أعداءهم، وصدقوا عنهم، وعن أنفسهم فيما اصطَلوه من حرِّ اللقاء، وفيما وصفوه من أحوالهم من إمحاض الإخاء^(١).

استهلَّ المُفَضَّلُ النُّكْرِي^(٢) قصيدته (الْمُنْصِفَة)^(٣) بالحديث عن الحنين إلى أولئك الجيرة قوم سُلَيْمَى، الذين رحلوا تاركين له الأحزان والأشواق، ناعثاً سُلَيْمَى

(١) الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، بيروت، الطبعة الخامسة، بلا تاريخ، ص ١٩٩.

(٢) هو المُفَضَّلُ بن مَعْشَر بن أَسْحَم بن عَدِي بن شَيْبَانَ بن سُؤَيْد بن عُذْرَةَ بن مُنَبِّه بن نُكْرَةَ. ونُكْرَةَ بضم النون وسكون الكاف. والمفضلُّ شاعر جاهلي. ذكر السيوطي أن اسمه (عامر بن معشر بن أسحم، وإنما سُمِّيَ مفضلًّا لهذه القصيدة)، وكذلك قال ابن سلام: (فضله قصيدته التي يقال لها المنصفة) (الأصمعيات ص ١٩٩ وما بعدها) وانظر: طبقات ابن سلام ص ١٢١، والاشتقاق لابن دريد ص ١٩٩، ٢٠٠، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٨٢، وشرح شواهد المغني للسيوطي ص ٦٢، وسمط اللآلي للبكري ص ١٢٥.

(٣) هي الأصمعية ذات الرقم التاسع والستين، ويروى أن أول من أنصف في شعره مهلهل بن ربعة حيث قال:

كَأَنَّا عَدُوَّةٌ وَبَنِي أَبِينَا * * بِجَنْبِ عُنَيْرَةِ رَحِيَا مُدِيرِ

ومن المنصفات قول الفضل بن العباس بن أبي لهب:

لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُونَا وَنُكْرِمَكُمْ * * وَأَنْ نَكْفَّ الْأَذَى عَنْكُمْ وَتَوَذِّنَا

قال ابن دُرَيْد: (قالها في حرب كانت بينهم في الجاهلية) (انظر: الأصمعيات ص ١٩٩، وخزانة الأدب للبغدادى ٥٢٠/٣ - ٥٢١).

وحديثها ، ذارفاً دموعاً غزيراً على فراقها، فقد بعدت ديارها وشحط مزارها،
قائلاً^(١):

أَلَمْ تَرَ أَنَّ جِيرَتَنَا اسْتَقَلُّوا * * فَنِيَّتْنَا وَنِيَّتَهُمْ فَرِيقُ
فَدَمَعِي لَوْلَوْ سَلِسٌ عُرَاهُ * * يَخْرُ عَلَى الْمَهَاوي مَا يَلِيْقُ
عَدْتُ مَا دُمْتُ إِذْ شَحَطْتُ سُلَيْمِي * * وَأَنْتَ لِذِكْرِهَا طَرِبٌ مَشُوقُ

أما العباس بن مرداس السلمي^(٢) فلم يكن بعيداً عن المفضل النكري لما
استهل قصيدته المنصفة^(٣) بذكر الأطلال ومحبوبته (أسماء) حين ارتحلت بمعينة

(١) الأصمعيات ص ٢٠٠.

(٢) هو العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة بن عبد قيس بن رفاعة بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار، أبو الهيثم، أحد الصحابة ، شاعر فارس، من سادات قومه. أمه الخنساء الشاعرة. أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم قبيل فتح مكة. وفد إلى النبي ﷺ فلما أعطى المؤلفة قلوبهم فضل عليه غيثة بن حصن والأقرع بن حابس ، فقام وأنشد شعراً قاله في ذلك، فأمر بلالاً فأعطاه حتى رضي، في خبر مشهور. ويدعى العباس فارس العبدي - بالتصغير - وهو فرسه. كان بدوياً قحاً، لم يسكن مكة ولا المدينة ، وإذا حضر الغزو مع النبي ﷺ لم يلبث بعده أن يعود إلى منازل قومه. وكان ينزل في بادية البصرة، وبيته في عقيقها (وفي معجم البلدان : عقيق البصرة وادٍ مما يلي سفوان). كان العباس يكثر من زيارة البصرة، وقيل: قدم دمشق وابتنى بها داراً. وكان ممن ذم الخمر وحرّمها في الجاهلية. ومات في خلافة عمر رضي الله عنه . (الأصمعيات بتحقيق شاکر وهارون ص ٢٠٤ وما بعدها، والأعلام للزركلي ٢٦٧/٣ وفيه وفاته نحو ١٨هـ نحو ٦٣٩م).

(٣) هي الأصمعية ذات الرقم سبعين. ومناسبتها : غزت بنو سليم ورئيسهم عباس بن مرداس مُراداً، فجمع لهم عمرو بن معد يكرب فالتقوا بتثليث من أرض اليمن، بعد تسع وعشرين ليلة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل من كبار مُراد ستة وقتل من بني سليم رجالان، وصبر الفريقان حتى كره كل واحد منهما صاحبه، فقال عباس بن مرداس قصيدته التي على السنين،

أهلها ، فغدا المكان قفراً ، ذاكرةً مواضع مثل (حرحان، راكس، جنبى عسيب)
حيث آثار الديار مرموسة مطموسة. بيد أن العباس ترك (أسماء) دالفاً لذكر
(سلمى)، ناعثاً أنسها الذي يهبط الوعل أنساً ، ودلها الذي لم ير مثله قط، وحسن
عهدا للذي يلم بببيتها ومجلسها، ورائحة المسك حين تتضوع منها حتى لكأنها
ترجل شعرها بالريحان تارة رطباً وأخرى يابساً ، يقول^(١):

لَأَسْمَاءَ رَسَمَ أَصْبَحَ الْيَوْمَ دَارِسَا * * وَأَقْفَرَ مِنْهَا رَحْرَحَانُ فَرَاكِسَا
فَجَنَّبِي عَسِيبٍ لَا أَرَى غَيْرَ مَائِلٍ * * خَلَاءَ مِنَ الْآثَارِ إِلَّا الرُّوَامِسَا
لِيَالِي سَلْمَى لَا أَرَى مِثْلَ دَلَّهَا * * دَلَالًا وَأُنْسًا يَهْبِطُ الْعُصَمَ أَنْسَا
وَأَحْسَنَ عَهْدًا لِلْمَلَمِّ بِبَيْتِهَا * * وَلَا مَجْلِسًا فِيهِ لِمَنْ كَانَ جَالِسَا
تَضُوعَ مِنْهَا الْمِسْكُ حَتَّى كَأَنَّمَا * * تُرْجَلُ بِالرَّيْحَانِ رَطْبًا وَيَابِسًا

وبدا جلياً أن الشاعرين كليهما ابتدرا قصيدتيهما بالوقوف على الأطلال،
ذاكرين المحبوبة (سليمة) عند المفضل النكري (وأسماء وسلمى) عند العباس بن
مرداس وقد بذ العباس المفضل النكري في وصف المحبوبة مسهباً في الحديث عن
دلها وعطرها الفواح، داعياً إياها أسماء حيناً وسلمى حيناً آخر. وكلتا المقدمتين
تقليد فني صرف لاحظ فيه للتجربة الحقيقية البتة. يقول ابن رشيق القيرواني :

وهي إحدى المنصفات. (انظر: الأصمعيات، ص ٢٠٤، والأغاني ١٣/٦٧ - ٦٨ ، وخزانة
البغدادى ٥١٨/٣) .

(١) الأصمعيات ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(وللشعراء أسماء تخفُّ على ألسنتهم وتحلو في أفواههم، فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً نحو : ليلي ، وهند، وسلمى... وعائشة ، والرباب ... ونُعَم وأشباههن) (١).
ولما تخلَّص الشاعران إلى غرضيهما سمتا سمت الأقدمين من أضرابهما، منتقلين انتقالاً مفاجئاً، فالمفضل ودَّع المحبوبة وذكرياتها، دالفاً للحديث عن المعركة وأوراها قائلاً^(٢):

فودَّعَهَا وَإِنْ كَانَتْ أَنْاءَ * * مُبْتَلَةً لَهَا خَلَقَ أَنْيَقُ
فِدَاءَ خَالَتِي لِبَنِي حِيٍّ * * خُصُوصاً يَوْمَ كَسُ الْقَوْمِ رُوقُ^(٣)

وتخلَّص العباس على طريقة (دع ذا) قائلاً^(٤):

فَدَعَهَا وَلَكِنْ قَدْ أَتَاهَا مَقَادُنَا * * لِأَعْدَانِنَا نَزَجِي الثَّقَالَ الْكَوَانِسَا^(٥)

كانت العرب في أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها ... ثم إذا أرادت الخروج إلى معنى آخر قالت : فدع ذا وسلّ الهم عنك بكذا ... وربما تركوا المعنى الأول وقالوا: (وعيس أو وهو جاء) وما أشبه ذلك^(٦).

(١) العمدة: ٢٢١/٢ - ٢٢٢.

(٢) الأصمعيات ص ٢٠٠.

(٣) الكسس : قصر الأسنان. والروق : طولها. وأرد أنه إذا قُتل قلص عن أسنانه فتبين روقاً.

(٤) الأصمعيات ص ٢٠٥.

(٥) يعني : النساء في الحمول، وأصله من كنس الطبي: دخل في كناسه، جعله لدخول المرأة في هودجها.

(٦) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٤٥٢.

وَبَعْدُ، انتقل الشاعران إلى غرضيهما، فالمُفَضَّلُ النُّكْرِيُّ أعجب بأعدائهم بني حِيٍّ وأنصفهم إنصافاً ظاهراً، ذاكرًا (بني عمرو بن عوف) منصفاً إياهم أيضاً، واصفاً الحرب التي دارت بينهم، يقول^(١):

فِدَاءٌ خَالَتِي لِبَنِي حِيٍّ * * خُصُوصاً يَوْمَ كَسَّ الْقَوْمُ رُوقُ
هُمُ صَبَرُوا وَصَبْرُهُمْ تَلِيدٌ * * عَلَى الْعَزَاءِ إِذْ بَلَغَ الْمَضِيقُ
وَهُمْ دَفَعُوا الْمَنِيَّةَ فَاسْتَقَلَّتْ * * دِرَاكاً بَعْدَمَا كَادَتْ تَحِيْقُ
تَلَاقَيْنَا بَغْيِيَّةَ ذِي طُرَيْفٍ * * وَبَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ حَيِّقُ

فثمة بلاء وصبر في ساحة المعركة بغيبة ذي طُرَيْف (موضع بالبحرين)، فقد وصف المُفَضَّلُ المعركة وصفاً دقيقاً، فالرشق بالسهم (تغصُّ به الحناجر والخلوق)، والنَّبلُ جراد تقلِّبه ريح شامية باردة شديدة الهبوب، قائلاً^(٢):

فَجَاءُوا عَارِضاً بَرْدًا وَجِنًّا * * كَسِيلَ الْعَرَضِ ضَاقَ بِهِ الطَّرِيقُ
..... * *
رَمِيْنَا فِي وَجُوهِهِمْ بِرِشْقٍ * * تَغَضُّ بِهِ الْحَاجِرُ وَالْخُلُوقُ
كَأَنَّ النَّبْلَ بَيْنَهُمْ جَرَادٌ * * تُكْفِيهِ شَامِيَّةٌ خَرِيقُ
..... * *

كَأَنَّ هَزِيزَنَا يَوْمَ التَّقِيْنَا * * هَزِيزُ أَبَاءَةٍ فِيهَا حَرِيقُ
بِكُلِّ قَرَارَةٍ وَبِكُلِّ رِيْعٍ * * بَنَانُ فَتَى وَجُمُجْمَةٍ فَلَيْقُ

(١) الأصمعيات ص ٢٠٠.

(٢) نفسه ص ٢٠١ - ٢٠٢.

وَكَمْ مِنْ سَيِّدٍ مَنَا وَمِنْهُمْ * * * بِذِي الطَّرْفَاءِ مَنْطِقُهُ شَهِيْقُ^(١)

لا ينفك المفضل يصف المعركة مشبهاً بصوت دوران الرحي تارة وحركة الريح تارة أخرى، ذاكرةً كثرة القتلى، ففي كلٍّ مرتفع ومنخفض بنان هنا وجمجمة هناك. ولما كانت المعركة متكافئة لم يجعل الشاعر الغلبة لطرف على آخر، فكلُّ منهما قد نال من الآخر الشيء الكثير، حتى أشبعا السَّبَاع والضباع والغربان من جثث القتلى ، قائلاً^(٢) :

فَأَشْبَعْنَا السَّبَاعَ وَأَشْبَعُوَهَا * * * فَرَاَحَتْ كُلُّهَا تَنَقُّ يَفُوقُ

تَرَكَنَا الْعُرْجَ عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ * * * وَلِلْغَرْبَانِ مِنْ شَبَعٍ نَغِيقُ

وقمين بالمفضَّل النُّكْرِيَّ أن يذكر هول المعركة ووقعها على نساء العشيرتين من بني نُكْرَة، وعمرو بن عوف، فظللن يبكين على القتلى حتى بَحَّتْ حلوقهن، ولمَّا رأى الأعداء صبرهم وسمودهم لجأ الفريقان إلى الحنين والقرابة ، فكفوا عن القتال وتهادنوا ، يقول^(٣) :

فَأَبْكَيْتَنَا نِسَاءَهُمْ وَأَبَكُوا * * * نِسَاءً مَا يَسُوعُ لَهُنَّ رِيقُ

يُجَاوِبْنَ النَّيَّاحَ بِكُلِّ فَجْرٍ * * * فَقَدْ صَحَلَتْ مِنَ النَّوْحِ الْحُلُوقُ

وهكذا وفقَّ المفضَّل النُّكْرِيَّ في وصف المعركة، وقد بدت متكافئة في كلِّ شيء، ورغم أن النفس تنفر عن رؤية وسماع ما ذكره الشاعر في تضاعيف أبيات

(١) انظر: العصر الجاهلي لشوقي ضيف ص ٢٠٥.

(٢) الأصمعيات ص ٢٠٢.

(٣) نفسه والصفحة نفسها.

قصيدته، غير أن هذا لا يغط المفضل حقه في أن وصفه بلغ الذروة من الجودة، فلا غرو أن وسمت هذه القصيدة بالمنصفة.

أما العباس بن مردّاس فقد وصف الحرب في منصفته، ذاكرًا أنهم ساروا إلى أعدائهم في جمع كثيف في رحلة طويلة قضوا فيها تسعاً وعشرين ليلة ، فصبّحوا أعداءهم على حين غرة، فهم في الحديد وأعداؤهم في غفلة عنهم ينحرون الإبل ويطعمون لحمها، بيد أنهم أدوا الحرب حقها، وقاوموا أعنف مقاومة في بسالة وشدة، يقول^(١) :

فَدَعَهَا وَلَكِنْ قَدْ أَتَاهَا مَقَادِنَا * * لَأَعْدَائِنَا نَرْجِي الثَّقَالَ الْكَوَانِسَا
بِجَمْعٍ يَرِيدُ ابْنَى صُحَارٍ كَلِيهِمَا * * وَآلَ زُبَيْدٍ مُخْطِئاً وَمُلَامِسَا
عَلَى قُلُوصٍ نَعْلُو بِهَا كُلَّ سَبَسَبٍ * * تَخَالُ بِهِ الْحَرْبَاءُ أَشْمَطَ جَالِسَا
سَمَوْنَا لَهُمْ تِسْعاً وَعَشْرِينَ لَيْلَةً * * نَجُوبٌ مِنَ الْأَعْرَاضِ قَفَرًا بِسَابِسَا
فَبِتْنَا قُعُودًا فِي الْحَدِيدِ وَأَصْبَحُوا * * عَلَى الرُّكَبَاتِ يَحْرُدُونَ الْأَنَافِسَا^(٢)

فخر العباس بن مردّاس بشجاعته وشجاعة قومه ، ذاكرًا طعانهم الأعداء الذين حالت دروعهم دون هلاكهم، وأن قومه قتلوا بكريم منهم ستة من أعدائهم ، قائلاً^(٣) :

وَكُنْتُ أَمَامَ الْقَوْمِ أَوَّلَ ضَارِبٍ * * وَطَاعَنْتُ إِذْ كَانَ الطَّعَانُ تَخَالِسَا
..... * *

(١) نفسه ص ٢٠٥.

(٢) يحرودون الأنافسا : يقال حرد اللحم: إذا قطعه. والأنافس: جمع الأنفس أي الأحب والأكرم.

(٣) الأصمعيات ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

ولو مات منهم من جرحنا لأصبحت * * ضباعاً بأكناف الأراك عرائسا^(١)
ولكنهم في الفارسي فلا يرى * * من القوم إلا في المضاعف لابساً^(٢)
فإن يقتلوا منا كريماً فإننا * * أباناً به قتلَى تذل المعاطس^(٣)
قتلنا به في ملتقى الخيل خمسة * * وقاتله زدنا مع الليل سادساً

ويتضح مما تقدم أن العباس صورَّ جو المعركة أصدق تصوير ، ورغم أن القصيدة موسومة بالمنصفة، لكن الشاعر جعل كفة فرسان قبيلته هي الأرجح، وكان الإنصاف يقتضي أن تكون الكفتان متعادلتين، وهذا ما جاء به المفضل النكري وأخفق فيه العباس بن مرداس.

المحور الثاني: شكل القصيدتين المنصفتين:

حقيق بي أن أبتدر هذا المحور بالحديث عن الوزن والقافية في كلتا القصيدتين، فالمفضل النكري ركب بحر الوافر، وهو بحر مسرع النغمات متلاحقها... وأحسن ما يصلح هذا البحر في الاستعطاف والبكائيات وإظهار الغضب في معرض الهجاء والفخر والتفخيم في معرض المدح^(٤). ولعلَّ المفضل وفقَّ في ركوب بحر الوافر في قصيدته المنصفة التي بدت متلاحقة النغمات والأحداث معاً، حتى انتهت بالحنين والغرابة والهدنة، والفخر والتفخيم باديان فيها.

(١) (ضباع ... عرائسا) : يقال : إنَّ الضبع إذا مات القتل فانتفخ ذكره تقعد عليه. (انظر: الحيوان للجاحظ ٤٥٠/٦ - ٤٥١)

(٢) الفارسيّ : يعني به الدروع، المضاعف: المنسوج حلقتين حلقتين.

(٣) أباءه به : قتل به. البواء: السواء والكفاء. المعاطس : الأنوف.

(٤) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها لعبدالله الطيب، (طبعة البابي الحلبي)، ٣٥٩/١.

وفي الطرف الآخر ركب العباس بن مردّاس بحر الطويل في منصفته ، وهو بحر فضله الشعراء على غيره في باب القصص المتصل بماضيهم، وأخبارهم وأساطيرهم، وملاحم قبائلهم في الأزمان السالفة^(١) . وحقيقة الطويل أنه بحر الجلالة والنبالة والجد، ... إنه بحر العمق^(٢) .

وافق بحر الطويل العباس حين قصَّ قصته في منصفته، مسهباً في أحداثها، مفاخرأً بملاحم قبيلته.

أما القافية ، فمنصفة المفضل قافية (فريق) ، ولعلَّ القلقة تجعل في القاف شيئاً من الصعوبة حين تتلاحق (فريق ، مشوق، المطيق، روق، حنيق...) . وتبدو السنين في قافية منصفة العباس (فراكسا) أقلَّ صعوبة من القاف، والسين قليلة الأصول في المعاجم... ومع ذلك ففيها جيدٌ كثير^(٣) .

والحديث عن القافية في القصيدتين المنصفتين يستدعي الوقوف هنيهة عند عيوبها، وأبرزها الإيطاء وهو أن يقفّي (الشاعر) بكلمة ثم يقفّي بها في بيت آخر^(٤) . وقال ابن رشيق القيرواني : "وأما الإيطاء فهو أن يتكرر لفظ القافية ومعناها واحد ... وكلما تباعد الإيطاء كان أخف..."^(٥) .

تفاوت الشعاران في الإتيان بالإيطاء بين بعيد غير معيب تارة، وقريب معيب تارة أخرى، يقول المفضل النكري^(٦) :

(١) نفسه ٣٩٨/١ - ٣٩٩ .

(٢) نفسه ٤١٤/١ .

(٣) نفسه ٥٤/١ .

(٤) الموشح للمرزباني ص ٥ .

(٥) العمدة ١٤٦/١ .

(٦) الأصمعيّات ص ٢٠٠ .

فَأَنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ غَدَاةَ جِنِّنَا * * * بَبْطُنْ أَثَالَ ضَاحِيَةً نَسُوقُ^(١)

ثم قال بعيداً^(٢) :

لَقَيْنَا الْجَهْمَ ثَعْلَبَةً بَنَ سَيْرٍ * * * أَضَرَ بِمَنْ يُجَمِّعُ أَوْ يَسُوقُ

فجاء بالقافية في كلا الموضعين (نسوق، يسوق) ، والذي خفف من وقعه أنه

إيطاء بعيد غير معيب.

وإذا كان موضع القافية قد ضاق على المفضل النكري مرة، فقد ضاق على

العباس بن مرداس غير مرة، جاعلاً إياه يلم بالإيطاء في غير بيت من منصفته،

قائلاً^(٣) :

وَأَحْسَنَ عَهْدًا لِلْمُلمِّ بِيَّتِهَا * * * وَلَا مَجْلِسًا فِيهِ لِمَنْ كَانَ جَالِسًا

ثم قال غير بعيد^(٤) :

عَلَى قُلُوصٍ نَعْلُو بِهَا كُلَّ سَبَسَبٍ * * * تَخَالُ بِهِ الْحَرْبَاءُ أَشْمَطَ جَالِسًا

حيث كرر موضع القافية (جالسا، جالسا) وهو إيطاء قريب معيب.

وثمة موضع آخر كرر فيه العباس القافية قائلاً^(٥) :

إِذَا مَا شَدَدْنَا شَدَّةً نَصَبُوا لَهَا * * * صُدُورَ الْمَذَاكِي وَالرِّمَاحِ الْمَدَاعِيسَا

..... *

(١) بطن أثال: موضع . ضاحية: أي علانية وجهاراً .

(٢) نفسه ص ٢٠١ .

(٣) نفسه ص ٢٠٥ .

(٤) نفسه والصفحة نفسها .

(٥) نفسه ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

فَأَبْنَا وَأَبْقَى طَعْنًا مِنْ رَمَاحِنَا * مَطَارِدَ خَطِيٍّ وَحُمْرًا مَدَاعِسَا^(١)

وتكرار القافية هنا جمع بين التعريف والتكثير (المداعسا - مداعسا) ، وهذا ما لا يصدق عليه حدُّ الإيطاء نصًّا.

ومما تقدم يصدق القول بأن المفضل النُّكْرِيَّ بذَّ صنوه العباس بن مردَّاس في مجال القافية بأن ألم بالإيطاء من بعيد ، حيث ألم به الثاني من قريب في غير بيت من قصيدته.

حفلت القصيدتان بغير قليل من الصور البيانية ، في صدارتها التشبيه مستمداً مادته من محيط بيئة الشاعرين، سلماً تارة وحرماً تارة أخرى، فلكثرة الرمي بالنبال في المعركة ، شبه المفضل النُّبْلَ بجراد تقلبه ريح شامية باردة شديدة الهبوب، يقول^(٢) :

كَأَنَّ النَّبْلَ بَيْنَهُمْ جَرَادٌ * * تَكْفِيهِ شَامِيَّةٌ خَرِيقُ

ثم شبه لمة الفارس (الحارث) لماً خرَّ سريعاً بعرجون به شماريخه^(٣) :

قَتَّانَا الْحَارِثَ الْوَضَّاحَ فِيهِمْ * * فَخَرَّ كَأَنَّ لِمَتَهُ الْعُذُوقُ

وصورة الحرب حاضرة عند العباس بن مردَّاس ، مشبهاً الفرسان بالأسود حين يمتطون صهوات جيادهم ، قائلاً^(٤) :

وَجُرْدًا كَأَنَّ الْأُسْدَ فَوْقَ مُتُونِهَا * * مِنَ الْقَوْمِ مَرُؤُوسًا وَآخَرَ رَأْسَا

(١) المذاكي: جمع مذك ، وهو ما جاوز القرح بسنة. وقد قرح الفرس، إذا دخل في السادسة. المدعس من الرماح: الغليظ الذي لا ينتنى.

(٢) الأصمعيات ص ٢٠١.

(٣) نفسه ٢٠٢.

(٤) نفسه ص ٢٠٧.

وتبدو مادة التشبيه عند الشاعرين مفعمة بالزينة حيناً والعطر حيناً آخر، فذا
المفضل يشبه ما نرفه من دموع على فراق الأحبة بلؤلؤ منظوم في تتابعه وبماءٍ
لغزارته قائلاً^(١) :

فَدَمْعِي لَوْلُؤُ سَلِسٌ عُرَاهُ * * يَخِرُّ عَلَى الْمَهَاوِي مَا يَلِيقُ

وصورة التشبيه عند العباس مضمخة بالمسك في حضرة المحبوبة حين
يقول^(٢) :

تَضَوَّعَ مِنْهَا الْمِسْكُ حَتَّى كَأَنَّمَا * * تُرَجَّلُ بِالرَّيْحَانِ رَطْباً وَيَابِساً

فالمحبوبة تفوح منها رائحة المسك كأنها ترجل رطبة بالريحان (تسرح) شعرها بالريحان
تارة رطبة وأخرى يابسة.

ومما تقدم أنفاً ألم الشاعران بصورة التشبيه المقترنة بكأن متضمنة ما أدركاه
في حالي الرضا والغضب.

يقول ابن طباطبا العلوي: "واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف
والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها، وأدركه عيانها، ومرت به تجاربها...
فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها ... ورضاها وغضبها ، وفرحها
وغمها..."^(٣) .

(١) نفسه ص ٢٠٠.

(٢) الأصمعيات ص ٢٠٥.

(٣) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ص ١٦-١٧.

للبدیع مكان في القصیدتین في مستهلہ رد العجز علی الصدر، الذی له موقع
جلیل من البلاغة ... وله في المنظوم محل خطیر^(١). وهو لون بدیعی فاقع ألم به
الشاعران في تضاعفی قصیدتیهما ، یقول المفضل النُکری^(٢) :

كَأَنَّ هَزِيزَنَا يَوْمَ التَّقِينَا * * هَزِيزُ أَبَاءَةٍ فِيهَا حَرِيقُ

..... * *

فَأُبْكِينَا نِسَاءَهُمْ وَأَبْكَوْا * * نِسَاءً مَا يَسُوعُ لَهْنٌ رِيقُ

..... * *

وَسَائِلَةٌ بِثُعْلَبَةٍ بَنٍ سَيْرٍ * * فَقَدْ أَوْدَتْ بِثُعْلَبَةٍ الْعُلُوقُ^(٣)

رد الشاعر قوله (هزیز) علی قوله (هزیزنا) ، وقوله : (نساء) علی
(نساءهم) و (بثعلبة) علی (بثعلبة) ، محدثاً جرساً داخلياً في أبياته آنفة الذكر، برد
ألفاظ الأعجاز علی الصدور.

وغير بعيد عنه صنوه العباس راداً الأعجاز علی الصدور أيضاً ، قائلاً^(٤) :

فَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْحَيِّ حَيًّا مُصْبَحًا * * وَلَا مِثْلَنَا لَمَّا التَّقِينَا فَوَارِسَا

..... * *

وَمَارَسَ زَيْدٌ ثُمَّ أَقْصَرَ مُهْرُهُ * * وَحَقَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا أَنْ يُمَارِسَا

(١) الصناعتین ص ٤٢٩.

(٢) الأصمعیات ص ٢٠٢.

(٣) نفسه ص ٢٠٣. ثعلبة بن سیر: یرید ثعلبة بن سیار فغیره للضرورة. العلوق: بفتح العین
المنیة، صفة غالبية.

(٤) الأصمعیات ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

..... **

فَإِنْ يَقْتُلُوا مِنَّا كَرِيمًا فَإِنَّا * * أَبَانَا بِهِ قَتْلَى تَذِلُّ الْمَعَاطِسَا

وتبدو الكلمات أفواجاً مرددة بين العجز تارة والصدر تارة أخرى (مثلنا - مثل ، يمارسا - مارس ، قتلى - يقتلوا).

وثمة لون بديعي آخر في منصفة العباس بن مردّاس هو الجناس، نجده في غير بيت منها، في مثل قوله^(١) :

لِيَالِي سَلَمَى لَا أَرَى مِثْلَ دَلَّهَا * * دَلَالًا وَأُنْسًا يُهْبِطُ الْعُصْمَ آئِسَا

..... **

وَأَحْصَنَا مِنْهُمْ فَمَا يَبْلُغُونَنَا * * فَوَارِسُ مِنَّا يَحْبِسُونَ الْمَحَابِسَا

..... **

وَكُنَّا إِذَا مَا الْحَرْبُ شَبَّتْ نَشُبُهَا وَنَضْرِبُ فِيهَا الْأَبْلَحَ الْمُتَقَاعِسَا

جانس الشاعر جناساً ناقصاً بين قوله (دلها - دلالة ، يحبسون - المحابسا، شَبَّتْ - نشبها) .

وهذا المفضل النُكْرِيُّ يجانس بين لفظ آخر جناساً ناقصاً، قائلاً^(٢) :

تُلَهَّى الْمَرْءَ بِالْحُدُثَانِ لَهْوًا * * وَتَحْدِجُهُ كَمَا حُدِجَ الْمُطِيقُ

فَأَشْبَعَنَا السَّبَاعَ وَأَشْبَعُوهَا * * فَرَأَحَتْ كُلُّهَا تَنَقُّ يَفُوقُ

(١) نفسه ص ٢٠٥ - ٢٠٧.

(٢) نفسه ص ٢٠٠ ، الحُذْنَانِ: بكسر الحاء وضمها: جمع الحديث. تحدجه: أي تغلبه بدله وحديثها.

يُجَاوِبْنَ النِّيَّاحَ بِكُلِّ فَجْرٍ فَقَدْ صَحَلَتْ مِنَ النَّوْحِ الْخُلُوقُ^(١)

ففي قوله : (تُلْهِي - لهواً ، فأشبعنا - أشبعوها ، النياح - النوح) جناس ناقص سهُمته لا تخفى في جرس البيت الشعري ، ولا سيما أنه يأتي عفو الخاطر. ولمَّا كان الشاعران يصفان جو المعركة مسهبين في ذلك الوصف، فإنهما مفتقران إلى الصفة وضدها بغية تكامل الوصف، فلا غرو أن جاءا بالطباق، يقول العباس بن مرداس^(٢) :

فَبِتْنَا قُعُوداً فِي الْحَدِيدِ وَأَصْبَحُوا * * عَلَى الرُّكَبَاتِ يَحْرُدُونَ الْأَنَافِسَا
ويقول واصفاً المحبوبة^(٣) :

تَضَوَّعَ مِنْهَا الْمِسْكُ حَتَّى كَأَنَّمَا * * تَرَجَّلَ بِالرِّيحَانِ رَطْباً وَيَابِسَا
في قوله (فبتنا - أصبحوا ، رطباً - يابساً) طباق إيجاب، واصفاً حال فرسانهم، وفرسان أعدائهم في المبيت والإصباح، ثم وصف الريحان تارة رطباً وأخرى يابساً.

طابق المفضل بين لفظ وآخر في غير بيت من منصفته ، قائلاً^(٤) :

بِكُلِّ قَرَارَةٍ وَبِكُلِّ رِيْعٍ * * بَنَانُ فُتًى وَجُمُجْمَةٌ فَلْيَقُ

..... * *

وَجَدْنَا السَّدْرَ خَوَّاراً ضَعِيفاً * * وَكَانَ النَّبْعُ مَنبُتُهُ وَثِيقُ

(١) الأصمعيات ص ٢٠٢.

(٢) نفسه ص ٢٠٥.

(٣) نفسه والصفحة نفسها.

(٤) نفسه ص ٢٠٢.

في قوله : (قرارة - ريع) طباق إيجاب بين المنخفض من الأرض (قرارة) والمرتفع (ريع) . والبيت الثاني يلم بالطباق والمقابلة معاً (السدر - النبع)، (خوار ضعيفاً - منبته وثيق) صفتان هنا وأخريان هناك، مقابلاً بين صفة الضعف في السدر وصفة القوة في النبع^(١) .

ومما تقدم يتضح أن القصيدتين مفعمتان بغير قليل من المحسنات البديعية لفظية حينا ومعنوية حينا آخر، دون تعمد وقصد من الشاعرين كليهما، وقد تقاربا فيها كمّاً وكيفاً، حيث لا فاضل ولا مفضول هنا. وهذه النتيجة يعضدها قول القاضي الجرجاني عن البديع: "وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها، ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد، فلمّا أفضى الشعر إلى المحدثين، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن... تكلّفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع، فمن محسن ومسيء ومحمود ومذموم، ومقتصد ومفرط"^(٢).

أما من حيث البنية فحظ القصيدتين من الوحدة يسير جداً، ف كلا الشاعرين استهل قصيدته بالحديث عن الحنين إلى ديار الأحبة التي غدت فقراً، بآثاً أحزانه وأشواقه، دالفاً للحديث عن المعركة وجوها العام، منصفاً أعداءه. ورغم اتفاق القصيدتين في غرضهما الرئيس وهو وصف المعركة، فالوحدة فيهما خارجيّة لا رباط فيها إلا من ناحية خيال الشاعر وحالته النفسية^(٣).

وخاتمة القول في الموازنة بين القصيدتين المنصفتين حفل معجمهما بألفاظ تصوّر جو المعركة أصدق تصوير، فالمفضل يذكر في تضاعيف أبيات قصيدته ألفاظاً تقطر دماً مثل: (صبرهم التليد، الشدة، المنية، الرمي، الرشق، النبل، الكمي،

(١) النبع: شجر تتخذ منه القسي، لشدته ورزاقته.

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٣٤.

(٣) انظر: النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال ص ٣٧٦.

سنان الموت، الرماح، الضرب المقيّل، الهام، الهزّيز، إشباع السّباع، إيكاء النساء^(١).

كما حفلت منصفة العباس بن مرداس أيضاً بشتى ألفاظ الحرب مثل: (قعوداً في الحديد، فوارسا، أكرّ، أحمي، السيوف، الضرب، القوانسا، صدور المذاكي، الرماح المداعسا، الخيل، الطعان، تخالسا، يطعنهم شزراً، مات، جرحنا، المضاعف، الحرب شبّت، الأسد)^(٢).

(١) انظر: الأصمعيّات ص ٢٠٠-٢٠٣.

(٢) نفسه ص ٢٠٥-٢٠٧.

الخاتمة

قمين بي في خاتمة هذه الموازنة أن أوجز ما توصلت إليه من نتائج:

١/ استهل الشاعران قصيدتيهما بالحديث عن الحنين إلى الأحبة الذين ارتحلوا، تاركين الأحزان والأشواق، وقد بذَّ العباس صنوه المفضل لما أسهب في وصف ذلك المشهد.

٢/ سمت العباس سمت الأقدمين في تخلُّصه لغرضه على طريقة (دع ذا)، أما المفضل فودَّع المحبوبة منتقلاً لغرضه.

٣/ أسهب الشاعران كلاهما في وصف المعركة وجوها العام، منصفين أعداءهما، ولكن المفضل كان أكثر إنصافاً لأعدائه من العباس الذي جعل كفة فرسان قبيلته أرجح.

٤/ لم يعطنا العباس خاتمة مناسبة للمعركة، في حين جعل المفضل خاتمة المعركة لجوء الفريقين إلى الحنين والقرابة، فكفوا عن القتال وتهادنوا.

٥/ ركب المفضل بحر الوافر في قصيدته موافقاً له في إظهار الغضب في معرض الفخر، بينما ركب العباس بحر الطويل موافقاً له في قص قصته لما أسهب في أحداثها، مفاخراً بملاحم قبيلته.

٦/ بدت قافية السين في قصيدة العباس أكثر سلاسة من القاف في قصيدة المفضل.

٧/ ضاق موضع القافية على الشاعرين مما جعلهما يأتیان بالإيطاء في غير بيت من قصيدتيهما، فكان الإيطاء أخف في قصيدة المفضل إذ كان بعيداً غير معيب، بينما كان قريباً معيباً في قصيدة العباس.

٨/ حفلت القصيدتان بكثير من الصور البلاغية في صدارتها التشبيه المقترن بكأنَّ المستمد مادته من بيئة الشاعرين سلماً وحرباً.

٩/ في القصيدتين غير لون بديعي فاقع كرد العجز على الصدر، والجناس والطباق، وقد أتى الشاعران بهذه الألوان البديعية عفو الخاطر، متساويين فيها كمّاً وكيفاً بحيث لا فاضل ولا مفضول هنا.

١٠/ حظ القصيدتين من الوحدة يسير جداً، وحدة خارجية لا رباط فيها إلا من جهة خيال الشاعرين، ضامتين أشتاتاً من الموضوعات من حنين إلى الديار إلى وصف المعركة إلى قرابة وهدنة، كل ذلك يُقصي الوحدة عن القصيدتين.

١١/ ضُمَّت القصيدتان غير قليل من ألفاظ المعركة، وقد بدتا متكافئتين في هذا المجال.

١٢/ مثلما كانت المعركتان في القصيدتين متكافئتين، كان الشاعران متكافئين، يبذُ المفضل النُّكريُّ صنوه العباس بن مرداس في سمة فنية حيناً، ثم يعود الثاني فيبذُ الأول في سمة فنية أخرى.

ثبت المصادر والمراجع:

- ١- الاشتقاق، ابن دُرَيْد، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، نشر مؤسسة الخانجي، مصر، مطبعة السُّنة المحمديَّة عام ١٩٥٨م.
- ٢- الأصمعيّات، الأصمعيّ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، بيروت- لبنان، الطبعة الخامسة (بلا تاريخ).
- ٣- الأعلام، خير الدين الزركلي، طبع دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة، عام ١٩٧٩م.
- ٤- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، طبع دار الكتب المصرية، تصوير دار الفكر، بيروت، (بلا تاريخ).
- ٥- جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسيّ، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، عام ١٩٦٢م.
- ٦- الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ج٦، نشر دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، عام ١٩٦٩م.
- ٧- خزانة الأدب، البغدادي، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، عام ١٩٦٧م.
- ٨- سمط اللآلي، أبو عبيد البكري، تحقيق عبد العزيز الميمني، طبع لجنة التّأليف والترجمة والنشر، عام ١٩٣٤م.
- ٩- شرح شواهد المغني، السيوطي، طبع القاهرة، عام ١٣٢٢هـ.
- ١٠- الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطبعة الأولى، عام ١٣٧١هـ.
- ١١- طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين، ابن سلام الجمحيّ، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني- القاهرة عام ١٩٧٤م.
- ١٢- العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف- مصر، الطبعة ٢٢ (بلا تاريخ).
- ١٣- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج١-٢، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع دار الجيل، بيروت- لبنان، الطبعة الرابعة، عام ١٩٧٢م.

- ١٤- عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، شرح وتحقيق عباس عبد الستار، مراجعة نعيم زرزور، طبع دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، عام ١٩٨٢م.
- ١٥- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب المجذوب، ج١، طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأولى، عام ١٩٥٥م.
- ١٦- معجم البلدان، ياقوت الحموي، طبع مطبعة السعادة - مصر ، الطبعة الأولى، عام ١٩٠٦م .
- ١٧- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المرزباني، طبع دار نهضة مصر، عام ١٩٦٥م.
- ١٨- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، طبع دار نهضة مصر (بلا تاريخ).
- ١٩- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة (بلا تاريخ).